الفصل الثالث

مقاومة الموالى فى عصر صدر الإسلام

اغتيال الخلفاء

وصل إلى المدينة عدد كبير من الأسرى ، وكان من بينهم الهرمزان . وهو قائد سياسى محنك ، جيء به من المدينة بلباسه وتاجه المكلل بالياقوت ، ومثل بين يدى عمر ، فأسلم وجعل له عمر مرتباً قدره ألفا درهم[1] . وبقى رئيسا للموالى يستشيرونه ويجتمعون إليه إذا حزبهم الأمر[2] .

وكان أبو لؤلؤة من أشد هؤلاء الموالى تعصبا لقومه ، وكلما مر به صبى من السبى مسح رأسه بيده وقال : أكل كبدى عمر[3] .

كبر على هؤلاء الموالى أن يروا مقوض دولة الأكاسرة ينعم بهذه القوة والجاه العريض والسلطان الواسع ، فإذا أرادوا أن ينتقموا من العرب فإن شخصية عمر هى الشخصية المكافئة للثأر منها ، وهكذا أجمعوا أمرهم ووكلوا به أبا لؤلؤة ، فطعن عمر بخنجر ذى رأسين طعنات توفى على أثرها .

وقد روى أن عمر قال حين طعن ، من أصابنى ؟ قالوا : أبو لؤلؤة . فقال : « قد نهيتكم أن تجلبوا علينا من علوجهم أحدا فعصيتمونى[4] » .

وقد اختلفت آراء المؤرخين فى أسباب اغتياله ، فمنهم من قال إنه مجرد

---

(١) ط ج ٥ ص ٢٥٥٢ (٢) ط ج ٥ ص ٢٦٣٢

(٣) ط ج ٥ ص ٢٦٣٢ (٤) طبقات ج ٣ ص ٢٥٤

عداء شخصى بين عمر وبين أبى لؤلؤة (انظر فى دائرة المعارف الإسلامية الجزء الثالث ص ١٠٦٣ تحت مادة عمر) .

ويرى ولهوزن أن اغتيال الخليفة ثأر للفرس من العرب فى شخصية عمر . وهو رأى أميل إليه ويقرب من الحقيقة وتؤيده الرواية الآتية : قال عبد الرحمن بن أبى بكر غداة طعن عمر ، « مررت على أبى لؤلؤة عشى أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى ، فلما رهقتهم ، ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان ، نصابه فى وسطه ، فانظروا بأى شىء قتل ، فلما جىء بالخنجر وجدكما وصفه عبد الرحمن . ولما سمع بذلك عبيد الله ابن عمر أمسك حتى توفى أبوه فاشتمل على سيفه وأتى الهرمزان فقتله[1] وقد أقنع الرأى العام بأن الأمر مدبر ، ذلك أنه لما أراد عثمان قصاص عبيد الله هاج عليه الناس ولم يروا حقا فى ذلك ، فوجد عثمان نفسه أمام مشكلة دعته أن يقوم خطيبا فيهم ويقول : ألا إنى ولى دم الهرمزان وقد وهبته لله ولعمر وتركته لدم عمر[2] . ولن أتعرض لذكر حديث كعب الأحبار وتنبئه بمقتل عمر لأنى أراه من قبيل الأحاديث التى تصاغ حول الحوادث الجسام ، على أنى لا أبرىء هذا الرجل من المؤامرة .

كان اغتيال عمر بدء سلسلة لاغتيالات مقبلة ، فإن اغتيال عثمان لن تبرأ منه يد الموالى ، وهو حادث جلل اكتنفه الغموض وأحاطت به الأحاديث المتضاربة ، فإن جموع المتذمرين أقبلت من أرجاء المملكة ساقها الدعايات والأراجيف والدسائس ووضع الأخبار والأحاديث حتى تجمعت فى عاصمة الخلافة فرق كثيرة من هذه الجموع لا تدرى لماذا جاءت وما الذى دفعها إلى ذلك ، وحدث من جراء تجمعها إرباك

---

(١) ط حـ ٥ — ٢٧٩٧ ، يعقوبى جـ ٢ ص ١٨٨ ، طبقات جـ ٣ ص ٢٥٨

(٢) يعقوبى جـ ٢ ص ١٨٨

نشر الفوضى حتى لم يعد الأمر ناظم يضبطه ، هنا أصاب المرجفون غفلة فدخلوا على حين غرة كما يقول صاحب الانتصار[1] على عثمان فقتلوه عن غير علم المسلمين يدلنا على ذلك قول على بن أبى طالب حين بلغه ذلك : تبا لكم آخر الدهر ، وقوله للحسن ، يقتل أمير المؤمنين وأنت حاضر ، فأخبره أنه لم يعلم بذلك ، وأخذ المرجفون يذيعون الأخبار ويلفقون التهم ، لتعفوا آثار الجريمة . ولتلصق بأكبر عدد ممكن من الأبرياء وغيرهم كى يسهل إيقاظ الفتن كما يحدث فى مثل هذه الحوادث .

ومهما يكن فإن هذه الفتنة العمياء التى ذهب فى غمرتها خليفة تقى عادل ملأت الأموال فى أيامه خزائن الدولة وبسط العدل رواقه وأترعت بيوتات قريش بالغنائم وضربت جنوده فى الأرض تفتح وتفرض نفوذه على العالم حتى ركزت راياتها على حدود الصين وأبواب الغرب — فتنة دبرتها يد السبئية (أتباع عبد الله بن سبأ) ويد الموالى الناقمين المتربصين وعقدوها نية تقلب الدولة وتخضخض استقرار الأمة . فهى ثورة فيها نقمة اليهود لخيبر وثأر الموالى للقادسية والمدائن وجلولاء . وهى حلقة مفرغة بدأت بعمر بن الخطاب وأخذت تلتقط كبار رجال الدعوة لتضعف شوكة الأمة وينفسح لها الطريق لتسلكه إلى هدفها وهو استئصال الحكم العربى من الوجود .

وقد بقى اغتيال على بن أبى طالب غامضا والتهمة فيه مقصورة على الخوارج حتى عثرنا على نص[2] مبين قلب صفحة التاريخ الأولى إلى الثانية وربط هذه الحوادث بعضها ببعض ، ووحد بين مراميها ومقاصدها . فقد دل هذا النص أن هذه المؤامرة التى ذهب ضحيتها الخليفة الرابع لا تختلف عن المؤامرة التى ذهب ضحيتها الخليفة الثانى فقد

---

(١) كتاب الانتصار لابن الخياط ص ٦١

(٢) الكامل للمبرد ص ٥٤٩ — ٥٥٣

رأس تلك الهرمزان ودبر هذه زاذويه فلم تكن إذن مجرد نقمة من الخوارج بل كانت مؤامرة مدبرة مقصودة من مرامها القضاء على ثلاث شخصيات من عظماء العرب هم على ومعاوية وعمرو بن العاص ، ولو تمت بكاملها ما نجا معاوية ولا عمرو .

مقاومة الموالى فى أيام بنى أمية

قلنا إن دولة بنى أمية كانت تستظهر فى حروبها وولاية أعمالها برجال العرب ، فاحفظ هذا الاستظهار قلوب الموالى . ونبين لهم أنهم لم يقتعدوا مكانا ظاهراً إلا إذا ثقفوا لغة الفاتح وتأدبوا بأدبه وفقهوا شريعته ، فاندفعوا إلى دراسة الأدب واللغة والقرآن والحديث ودراسة الأنساب خاصة ليضعوا على العرب من المثالب ما يريدون[1] . واتخذوا من مبادىء الدين وسيلة تحلهم المحل الأرفع ، فقد أقر القرآن : أن المؤمنون إخوة « إنما المؤمنون إخوة » وأثبت النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع أن الله أذهب عن الناس نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، وأنهم كلهم لآدم وآدم من تراب[2] ولم يكفهم هذا فقد بدءوا ينشرون مآثر آبائهم ويفاخرون العرب ويكاثرونهم ويظهرون فضل العجم على العرب[3] ، ونظموا حركة قوية يكمن فيها خطر جسيم .

يقول ولهوزن . لقد كان للدولة الأموية شغل شاغل فى مقاومة المعارضة التى يقوم بها الموالى باسم الله وباسم الدين ضدهم ، وكان هذا الخطر الذى يظهر بين حين وآخر ضد الحكم الأموى آتياً من ناحية

---

(١) راجع الأغانى فى ترجمة على بن الجهم جـ ٩ ص ١٠٤ ، المسعودى جـ ٦ ص ١٧٣ ، ١٥٥ ، أغانى جـ ٢٠ ص ٧٨ ، جـ ١٢ ص ١٥٦

(٢) عقد جـ ٢ ص ٧٠ — ٧٧ (٣) العقد جـ ٢ ص ٨٦ — ٨٧

العراق والخطر الأكبر فى ذلك حركة اجتماعية لم تكن موجهة ضد الأمويين فحسب بل ضد العرب عامة (١) .

ومما ساعدهم على حركتهم أن الشريعة الإسلامية تركت لهم التصرف فى أملاكهم . وأموالهم — إذا دخلوا الإسلام — أو أعطوا الجزية كما يشاءون ويختارون . وفى العراق دهاقين أثرياء كانوا يمدون ثوراتهم بالمال كما فعل الدهقان فيروز فى إمداد حركة ابن الأشعث ضد الحجاج ، فلما التقى جيش الحجاج بجيش الموالى تحت إمرة ابن الأشعث عند روستاق أباد نادى الحجاج فى المعسكر : « من أتى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » ففصل فيروز من الصف وصاح بالناس — من عرفنى فقد اكتفى ، ومن لم يعرفنى فأنا فيروز حصين . وقد عرفتم مالى ووفائى . « من أتى برأس الحجاج فله مائة ألف » . فلما أتى به إلى الحجاج قال له : « أأنت الجاعل فى رأسى مائة ألف ؟ . » قال — قد فعلت ، قال : « والله لأمهدنك ثم لأحملنك . أين المال ؟ قال عندى فهل للحياة من سبيل ؟ » قال : لا ! قال : فأخرجنى إلى الناس حتى أجمع المال ، فخرج فيروز فأحل الناس من ودائعه » وأعتق رقيقه وتصدق بماله ، ثم رد إلى الحجاج فقال : شأنك فأمر الحجاج بقتله (٢) .

ولم يكترث الأمويون بما كان يقوم به شعراء الموالى فى إيقاظ الروح وبعث الشعور فى جماعتهم وتذكيرهم بأمجاد آبائهم كما كان يفعل شاعرهم اسماعيل بن يسار (٣) فقد كان جريئاً إلى حد أنه أنشد شعراً أمام هشام بن عبد الملك كله فخر وتذكير برجال الفرس قال :

إنى وجدك ما عودى بذى خور عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم

---

(١) ولهوزن الدولة العربية وسقوطها ص ١٩٢

(٢) الكامل ٦٥٦ ، كريمر تاريخ الثقافة جـ ٢ ص ١٦١ .

(٣) أغانى جـ ٤ ص ١٢٥ كريمر تاريخ الثقافة ص ٣٠

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به ... ولى لسان كحد السيف مسموم
جحجاح جحجح سادة بلجح مرازبة ... جرد عتاق مسامیح مطاعیم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا ... والهرمزان لفخر أو لتعظيم
هنالك إن تسألى تنبى بأن لنا ... جرثومة قهرت عز الجراثيم

فغضب هشام ثم شتمه وقال : « أعلىّ تفخر وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك ، وأعلاج قومك ؟ » ، ولكنه لم يعاقبه إلا عقابا يسيرا ذلك أنه أمر بغطسه فى البركة ثم أخرج ونفى إلى الحجاز .

وكان كثير من هؤلاء الموالى يظهرون الحب ويتقربون من الأمويين ولكنهم يضمرون فى مكنونهم الغدر ، فقد حكى عن اسماعيل بن يسار أنه حجب عن الدخول على الغمر بن يزيد فجعل يبكى فلما سأله الغمر — مالك يا أبا فائدة تبكى ؟ قال — وكيف لا أبكى وأنا على مروانيتى . ومروانية أبى أحجب عنك . وما زال يبكى حتى وصله الغمر بجميله . وخرج من عنده فلحظه رجل فقال له : أخبرنى « ويلك يا إسماعيل » أى مروانية لك ولأبيك ؟ قال بغضنا إياهم فامرأته طالق إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقيل له : قل لا إله إلا الله . فقال : لعن الله مروان تقربا بذلك إلى الله وإبداله من التوحيد وإقامته مقامه (١) .

وزاد فى ذلك أن عمر بن عبد العزيز سار بهم سيرة العدل وساواهم بالعرب وأطلق يدهم فتمكنوا أن ينفذوا خططهم التى اختطوها حسبما يريدون . وكانوا يستثمرون كل خلاف يقع بين الأحزاب العربية وبين رؤسائهم . وقد فطن لذلك عبد الملك . فكان يقول : إذا كان الفتق من سجستان فليس فى ذلك بأس ، إنما كنا نتخوف إذا كان من خراسان ،

(١) أغانى ج ٤ ص ١٢٠ .

وقد كان نصر بن سيار (والي يزيد بن الوليد في خراسان) أشد رجال بني أمية حذراً، كان يقول للكرماني: يا أبا علي، لقد لججت وأخاف أن يتفاقم الأمر فنهلك جميعاً وتشمت بنا هذه الأعاجم[1]. وكتب يحذر عرب خراسان من العجم ومما جاء في قوله:

قوما يدينون ديناً ما سمعت به ... عن الرسول ولا جاءت به الكتب

فمن يكن سائلي عن أصل دينهم ... فإن دينهم أن تقتل العرب[2]

وكان الموالي يغذون كل ثورة من شأنها إضعاف المملكة. فلم يترددوا في اتباع المختار ضد ابن الزبير، والانضمام إلى عبد الرحمن بن الأشعث ضد الحجاج ومعاضدة العباسيين ضد الأمويين، وقد تجاوزوا هذا إلى أكثر منه واستمروا على هذه الخطة حتى بعد انتصار العباسيين فإنهم لم يترددوا في بذر بذور الشقاق بين أعضاء الأسرة نفسها فهم الذين ساعدوا الرشيد على أخيه الهادي والمأمون على أخيه الأمين.

وكانوا كثيراً ما يتخذون أهل البيت ستاراً لدعوتهم ويثورون لأجلهم قال نعيم بن حازم للفضل بن سهل، وكان جالساً بين يدي المأمون حين أخذ الفضل يحسن نقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين:

«إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن ولد العباس إلى ولد علي ثم تحتال عليهم، ثم تصير الملك كسروياً[3].

(١) ط ج ٣ ص ١٨٦٥ (٢) نولدكه ص ٨٨ (٣) جهشياري ص ٣٩٧